مجلـة جـامعـة الإمـام ــــــــــــــــــــــــ العـدد الثـاني عشر
محمد بن سعـود الإسلامية جمادى الآخـرة ١٤١٥هـ

الدافع الديني في هجوم المرابطين على غانا على ضوء كتابات المؤرخين المسلمين مع الإشارة على وجه الخصوص لتفسير ابن خلدون للهجوم

الدكتور سعود بن حمد الخثلان
قسم الاجتماع ـ كلية الآداب
جامعة الملك عبدالعزيز

يختص هذا البحث بناحية من تاريخ حركة المرابطين وفيه يحاول الباحث تأكيد مسألتين :

الأولى : أهمية الدافع الديني في هجوم فريق من المرابطين على غانا وإسقاطها حيث كان هذا الدافع هو المحرك الأساس لهم في مسيرتهم صوب السودان .

الثانية : أن تفسير ابن خلدون للهجوم لا يعني أن هذا المؤرخ يوجه اتهاماً لهؤلاء المرابطين بالعدوان والطمع المادي في غانا .

قبائل البربر وإمبرطورية غانا قبل حركة المرابطين

تشير المصادر إلى أنه منذ أواخر القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) كان البربر من وقت لآخر يُنشئون فيما بينهم ما يشبه الحلف، حيث تنضوي مجموعة من القبائل تحت لواء واحد تكون السيطرة فيه للقبيلة الأقوى، إلا أن هذه الأحلاف لاتلبث أن تؤول إلى الزوال نتيجة عودة القبائل المتحالفة إلى حالة التفكك والتناحر فيما بينها[1] .

وخلال القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) بدأ الإسلام ينتشر ويقوى بين قبائل البربر في الصحراء، وأخذت القبائل ذات النفوذ، خاصة في «صنهاجة و كلمتونه وجداله» في توظيف التحالف لتشكيل جبهة تقوم من خلالها بممارسة الجهاد ضد الوثنيين في الجهات الموالية لهم من بلاد غانا، ونتيجة لذلك كانت قبائل البربر بين فترة وأخرى تفرض سيطرتها على أجزاء كبيرة من الصحراء وبلاد السودان[2] .

وفي بداية النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) تشكل أحد هذه الأحلاف القوية، وكانت الرئاسة فيه لقبيلة «لمتونه» حيث نصب البربر عليهم «تين يروتان» اللمتونى ملكاً[٣] وقد بلغ هذا الملك من خلال الحلف من السلطان والنفوذ مبلغاً عظيماً، إذ وصفته المصادر بأنه كان يسير في بعض حملاته في مائة ألف جمل، وأن سلطانه كان يمتد مسيرة شهرين في مثلها. وكان جزءٌ من هذه المنطقة داخل بلاد السودان حيث خضع له أكثر من عشرين حاكماً من حكامها وأدوا له الجزية.[٤]

ويسعفنا ابن حوقل (ت ٣٦٧ هـ / ١٩٧٧ م) بشيء من التفصيل عن الحلف في النص التالي والذى نقله عن شاهد عيان: (وكان ملك «صنهاجة» يلي أمرهم منذ عشرين سنة، وأنه لا يزال في كل سنة يرد عليه قوم منهم زائرين له لم يعرفهم ولا سمع بهم ولا مَقَلهم، قال:[٥] ويكونون نحو ثلاثمائة ألف بيت من بين نوالة وخص)[٦].

وبعد انحلال هذا الحلف نتيجة الخلاف بين قبائل صنهاجة دبت الفرقة بينها من جديد ودام ذلك عدة عقود إلى أن قامت قبيلة لمتونة مرة أخرى في النصف الأول من القرن الخامس الهجري (الحادى عشر الميلادي) بِلَمِّ شمل القبائل تحت زعامة أحد رجالاتها الأمير محمد بن تيفاوت المعروف «بتارشتا». وقد مثل ذلك آخر تجمع لقبائل صنهاجة قبل قيام حركة المرابطين[٧].

لم يستمر هذا التجمع طويلا إذ يفهم من المصادر أنه لم يعد له كبير فعالية بعد استشهاد «تارشتا» حيث انحصر الأمر في لمتونة وجدالة. ويبدو أنه لما اختير الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي ليخلف «تارشتا» في زعامة صنهاجة انصرف الاهتمام الى ما يمكن أن نسميه بالأوضاع الداخلية لهذه القبائل، فقد ذهب هذا الأمير في رحلة طويلة إلى الحج دامت حوالي ثلاث سنوات، واصطحب معه فيها نخبة من رؤساء العشائر من قومه. وأثناء وجوده في بلاد المغرب تردد على مجالس العلم الأمر الذى دعاه الى إعادة النظر في أحوال قومه الدينية والاجتماعية المتردية[٨]، كما سيشار إليه في فقرات تالية.

ويبدو أنه كان لتفكك هذا الحلف الأخير أثره في إضعاف موقف قبائل البربر في منطقة جنوب الصحراء والذى أثّر بالتالي على ميزان القوى بين هذه القبائل وإمبراطورية غانا مما شجع هذه الأخيرة للإسراع في بسط نفوذها على مدينة أودغست(٩) في أواخر العقد الثالث من القرن الخامس الهجري (الحادى عشر الميلادي)(١٠).

وبالرغم مما اتسمت به الروايات التى تحدثت عن تجمعات البربر من مبالغة كتلك التي وصفت جيش «تين يروتان» والمناطق التى شملها نفوذه، إلا أننا نجد فيها ما يعكس مدى القوة التى بلغتها قبائل البربر في تلك الفترات. ومما يؤيد ذلك أن إمبراطورية غانا مع عظمها لم تستطع الصمود أمام هجمات القبائل المتحالفة على أقاليمها الشمالية، وقد اضطر كثير من حكام هذه الأقاليم إلى دفع الجزية إلى «تين يروتان». ليس ذلك فحسب بل إن هذا الملك لم يتردد في التدخل في نزاع بين إقليمين من أقاليم غانا وهما «أوغام وماسين» حيث قام بمساعدة حاكم هذا الإقليم الأخير ضد أوغام وذلك بإمداده بعدد كبير من الجمال(١١). أما «تارشتا»، زعيم صنهاجة في الحلف الأخير، فقد كان من الشجاعة والحماس لنشر الإسلام في بلاد السودان إلى درجة أنه استشهد في إحدى المعارك التى خاضها ضد الوثنيين على أرض امبراطورية غانا في موضع يقال له فنفار وذلك بعد ثلاث سنوات من قيام الحلف(١٢).

ومما يدل أيضا على قوة قبائل البربر في تلك الفترات أن إمبراطورية غانا لم تجرؤ على القيام بأية محاولة لمد نفوذها على مدينة أودغست، المركز التجاري المهم على حدودها الشمالية، إلا بعد أن تراجعت سطوة هذه القبائل إثر تفكك حلفهم الأخير، كما سبقت الإشارة إليه. أما قبل ذلك فقد اتخذ البربر مدينة أودغست مركز تجمع لهم مؤكدين بذلك سيطرتهم عليها(١٣).

ولما كانت إمبراطورية غانا مضطرة للتعامل مع أودغست وذلك لحاجتها الماسة للملح القادم من الشمال عن طريق هذا المركز فإن إمبراطور غانا وكثير من حكام

أقاليمها كانوا يخطبون ود ملك البربر في أودغست فيرسلون إليه في بعض المناسبات الهدايا الثمينة[١٤].

المرابطون(*)

ولكن الذي يلاحظ أن الجهاد الذى قام به البربر في بلاد غانا من خلال أحلافهم تلك لم يؤت نتائج حاسمة ولم يتمخض عنه تغيير جذري في وضع المنطقة. وقد يعود ذلك إلى الوضع الهش لكيان تلك الأحلاف، إذ كانت لا تدوم طويلا، كما سبقت الإشارة إليه، فكانت عرضة لأي خلاف بين القبائل يؤدي إلى انهيارها. وكان لطبيعة فهم هذه القبائل للإسلام في تلك الفترات أثر في ضعف تحالفها، فلم يكن أفراد تلك القبائل يفهمون الإسلام الفهم الكافي حتى أن بعض الكتاب وصفهم بأنهم قبل قيام حركة المرابطين لم يكونوا يفهمون من الإسلام إلا الشهادتين[١٥]. ومما يؤيد ذلك أن الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي أثناء حضوره بعض مجالس العلم في بلاد المغرب أدرك ما كان عليه قومه من جهل لتعاليم الإسلام، ولما سأله الفقيه أبو عمران الفاسي عن حالة قومه وما ينتحلونه من مذهب في الإسلام كانت إجابته صريحة حيث وصف قومه بأنهم أناس غلب عليهم الجهل وليس عندهم من العلم عن الإسلام شيء وليس فيهم من يقرأ القرآن[١٦]. فكان لذلك بلا شك انعكاساته السلبية على تحالفاتهم وبالتالي على جهادهم في السودان.

والمصادر تجمع على أن الأمير يحيى بن إبراهيم من هذا المنطلق رأى أنه لا بد من البدء بإصلاح حالة قومه الدينية فتقدم بطلب المساعدة من الفقهاء في بلاد المغرب وكانت النتيجة أنه رجع إلى قومه في الصحراء سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م)، ومعه الفقيه عبدالله بن ياسين[١٧].

وعلى يد هذا الفقيه وأيدي الأمراء من صنهاجه قامت حركة المرابطين في بضع سنين وهي الحركة التى ترتب على جهاد فريق من أتباعها في منطقة جنوب الصحراء انهيار إمبراطورية غانا الوثنية، هذا الانهيار الذى يعد في الحقيقة أهم

حدث في تاريخ المنطقة منذ بدأ البربر صراعهم مع الإمبراطورية لما ترتب عليه من تحول للسلطة فيها إلى الإسلام وما أعقبه من تدعيم للإسلام في المنطقة حتى أن بعض الكتاب رأى أن لسنة **٤٦٩** هـ (**١٠٧٦** م)، وهو تاريخ سقوط غانا الوثنية على أيدي المرابطين، من الأهمية بالنسبة للسودان الغربي ما لسنة **١٠٦٦** م (**٤٥٩** هـ) من الأهمية بالنسبة لإنجلترا، وهى السنة التى فتح فيها النورمان هذا البلد[١٨].

المرابطون في المغرب والمرابطون في الصحراء

ليس من اختصاص هذا البحث التفصيل في كيفية قيام حركة المرابطين إلا أنه لا بد لنا هنا من الإشارة بإيجاز شديد إلى تطور أهم الأحداث في عهد الأمير أبي بكر بن عمر، فبعد وفاة عبدالله بن ياسين إمام المرابطين سنة **٤٥١** هـ (**١٠٥٩** م) تولى هذا الأمير جميع المهام في قيادة المرابطين جامعا بذلك بين الإمامة والإماره. ومع مرور الوقت أصبح ابن عمه يوسف بن تاشفين ساعده الأيمن[١٩].

ولما ترامت إلى مسامع الأمير أبي بكر بن عمار أخبار النزاع بين قبائل البربر في الصحراء سار من توه بجزء من الجيش إلى الصحراء، وهناك استطاع أن يحسم الخلاف وأن يقطع دابر الفتنة. وقد أخذ منه إنجاز هذه المهمة بعض الوقت. وعندما عاد إلى المغرب وجد يوسف بن تاشفين قد رتب شؤون الدولة واستقرت له الأوضاع، فتنازل الأمير أبوبكر بن عمر لابن عمه عن السلطة في المغرب في أول لقاء بينهما، وقرر أن يعود مع فريق من المرابطين في الصحراء وحمل لواء الجهاد في بلاد السودان[٢٠].

وقبل البدء في الحديث عن أهداف الهجوم على غانا نرى من الضروري الإشارة إلى ناحية مهمة وهى أن هذا الفريق من المرابطين الذى عاد إلى الصحراء وحمل لواء الجهاد ضد غانا، والمرابطين الذين بقوا في المغرب، ظلوا معا طيلة أيام أبي بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين، يمثلون حركة المرابطين التى نشأت في الصحراء، في مبادئها وجهادها بدون تغيير. وما يذكره بعضهم من انقسام في حركة المرابطين واستقلال فريق بالمغرب وبقاء فريق آخر في الصحراء[٢١] لايعطي

الصورة الحقيقة لواقع المرابطين عندما تولى يوسف بن تاشفين الأمور بالمغرب وانصرف أبوبكر بن عمر ليدير شؤون الحركة في الصحراء والسودان[٢٢]، إذ إن ذلك لم يؤد إلى انفصال الفريقين عن بعضهما أو انقطاع الاتصال بينهما، فابن عذارى، على سبيل المثال، في حديثه عن مراسيم وداع يوسف بن تاشفين لأبى بكر، قال ما نصه: «. . . . . فدعا له الأمير يوسف وشكر وقال له: لك علي ألا أقطع أمراً دونك، ولا استأثر إن شاء الله، بشيء عليك»[٢٣]. وقبيل تحرك أبي بكر بن عمر من مدينة «أغمات» متجها إلى الصحراء أرسل إليه يوسف بهدية عظيمة فسر بها أبوبكر وقال: «خير كثير، ولم يخرج الملك من بيننا ولا زال عن أيدينا»[٢٤]. ويذكر ابن عذارى أيضا أن يوسف بن تاشفين ظل يمد أبابكر بن عمر بالتحف والهدايا حتى توفي هذا الأخير في جهاده ضد السودان[٢٥]. كما أن يوسف بن تاشفين بدأ ضرب دينار الذهب المرابطى في سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧١ م) باسم أبي بكر بن عمر[٢٦] وقد استمر ظهور اسمه على الدينار المرابطى حتى وفاته سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م)[٢٧].

فما حصل من تقسيم لم يكن إذاً في كيان المرابطين بصفتهم حركة أو دولة، وإنما كان في الإدارة، خاصة وقد عظمت الدولة وأصبح أمامها أرجاء واسعة تتطلب جهادا وفتحا وبالتالي إدارة فتوجب لذلك أن يكون للمغرب جندها وإدارتها وللصحراء جندها وإدارتها[٢٨]، ليعمل كل فريق في جهته ويحقق تطلعات المرابطين وأهدافهم من الجهاد.

أهداف الهجوم على غانا

إن من الواضح أن المصادر لم تعط اهتماماً يذكر لجهاد المرابطين في السودان[٢٩] لذا فليس من المتوقع أن يوجد فيها حديث مفصل عن هذا الهدف أو ذاك من زحف أبي بكر بن عمر ومن معه من المرابطين على غانا. ولهذا السبب، وأخذاً في الحسبان باستمرارية حركة المرابطين ممثلة في فريقيها كل في منطقته، كما تبين في الأسطر السابقة، فإنه لا بد لنا من الاتجاه إلى جوانب من تاريخ هذه الحركة والمبادىء التى قامت عليها وتطور جهاد أفرادها في الصحراء والمغرب، لكى نتلمس ونحدد الهدف من هجوم هذا الفريق من المرابطين على غانا، فقد

جاء ضمن هذه الجوانب من الدلالات ما يكفى للقول بأن الهدف كان لإزاحة السلطة الوثنية وإبدالها بسلطة إسلامية[٣٠] تدعيما وتعميقا لوجود الإسلام الذى وصل إلى المنطقة عن طريق التجار المسلمين وصار له اتباع في غانا منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)[٣١].

وإن من هذه الدلالات الإشارة إلى ما كان للظروف الدينية والاجتماعية التى كانت سائدة في بلاد المغرب والصحراء من أثر في قيام حركة المرابطين، فالبكري أورد تفصيلات عن موجة التنبؤ والشعوذه التى عمت جزءاً كبيراً من بلاد المغرب الأقصى في الفترة التى قامت فيها حركة المرابطين[٣٢]، وقد عبر ابن أبي دينار عن هذه الحالة السيئة بقوله: «وقام بالمغرب عدة أقوام من المفسدين وقليل من المصلحين، فقيض الله سبحانه وتعالى دولة الملثمين البربر ويقال لهم المرابطين. . .»[٣٣]. ونجد فيما أورده ابن أبي زرع عن «درعة وسجلماسة» مثالا للحالة التى وصلت إليها بعض المناطق في المغرب، فقد أشار إلى اتصال أهالي هاتين المدينتين بالمرابطين طلباً للخلاص مما تعانيه بلادهم من المنكرات وشدة العسف والجور»[٣٤]. وشبه ابن عذارى حالة الفوضى التى كانت تعيشها بلاد المغرب في تلك الفترة بالحالة التى كان عليها ملوك الطوائف بالأندلس[٣٥]. أما القبائل في الصحراء فإنها لم تكن تعرف من الإسلام في تلك الفترة إلا الشهادتين كما سبقت الإشارة اليه.

ومن هذه الدلالات أيضا ما حظيت به الحركة وقادتها من ثناء بالغ في المصادر وربط ذلك بما قدمه أولئك القادة من جهود لرد الناس إلى السنّة وقمع الفرق والفئات المنحرفة في المغرب، وحمل لواء الجهاد في الصحراء والسودان، فعبدالله بن ياسين، قائد الحركة و المؤسس الأول لها، أصيب على أرض المعركة وتوفي أثناء الجهاد في بلاد المغرب[٣٦]، ويحيى بن عمر، الذى كان رجل المرابطين الثاني في حياة عبدالله بن ياسين، استشهد أثناء الجهاد ضد الوثنيين على تخوم السودان. وأبوبكر بن عمر، الذي أصبح الرجل الأول في الحركة بعد استشهاد ابن

ياسين، توفي هو الآخر على أرض المعركة في الجهاد ضد الوثنيين في بلاد غانا[٣٧].

يقول البكري عن قبائل صنهاجة: «وهذه القبائل هي التى قامت بعد الأربعين والأربع مائة بدعوة الحق، ورد المظالم، وقطع جميع المغارم»[٣٨]. ويشير ابن أبي زرع إلى أنه بالرغم من غلبة البداوة على المرابطين إلا أنهم كانوا أهل دين متين عدلوا في أحكامهم وواظبوا على الجهاد[٣٩]. ويعدد ابن أبي زرع أيضا منجزات عبدالله بن ياسين في «سجلماسه» بعد فتحها، فيقول: « . . . وأصلح أحوالها وغير ما وجد بها من المنكرات، وقطع المزامير وأحرق الديار[٤٠]، التى كانت تباع بها الخمر، وأزال المكوس وأسقط المغارم المخزنية»[٤١]، ويقول متحدثا عن الأمير أبي بكر بن عمر: «وسار إلى الصحراء فهدنها وسكن أحوالها[٤٢].

فالمصادر إذاً تعيد قيام حركة المرابطين إلى ظروف دينية واضحة المعالم في كل من المغـرب والصحـراء دفعت بالمنشئين الأول لهـذه الحركة للسعي حثيثاً للإصلاح الديني فدخلوا في جهاد على نطاق واسع في هاتين المنطقتين، ففي بلاد المغـرب جاهـدوا فئـة «البرغواطيين»[٤٣] المنحرفة، وقضوا على الشيعة والوثنيين ودخلو في حرب مع اليهود هناك[٤٤]. وفي الصحراء جاهدوا كل قبائل البربر التى وقفت ضد دعوة الإصلاح والعودة إلى الإسلام الصحيح[٤٥]. وبما أن ذلك الجيش الذى هاجم غانا كان جزءاً من تلك الحركة فليس من المستغرب أن ينظر إلى زحفه على غانا على أنه كان بدافع ديني في المقام الأول رغبة في الجهاد في سبيل الله، خاصة إذا علمنا أن أبا بكر بن عمر، قائد هذا الجيش، لم يأت من فراغ ولم يكن رجلاً مغموراً، بل كان أحد قادة الجهاد في المغرب والصحراء، فهو الذى قدمه عبدالله بن ياسين، مؤسس الحركة للإمارة على المرابطين، وأثنى عليه في إحدى المناسبات فذكر زهده وورعه وما أصلح الله على يديه من البلاد[*].

وقد تناقلت المصادر مواقف عظيمة للأمير أبي بكر بن عمر، أبرزها تنازله عن السلطة لابن عمـه يوسف بن تاشفين، الأمر الذى يؤكد صدق نواياه في الجهاد وزهده في المكاسب الدنيوية[٤٦]. وقد اشتهر الأمير أبي بكر بن عمر بين السودانيين

بهذه الصفات فمال إليه الناس، ولا أدل على ذلك من أن القبائل السودانية المسلمة ثارت ثائرتها عندما قتل، وقامت تطالب بالأخذ بالثأر من قاتله[٤٧]. ليس ذلك فحسب بل كان لسيرته صداها في التراث الشعبي في المنطقة حيث رويت قصة تعكس ورعه وتقواه[٤٨].

وإن مما يدعم القول بأهمية الدافع الديني في هجوم أبي بكر بن عمر وجيشه على غانا ما ورد في المصادر من إشارات صريحة إلى عملية الجهاد، يقول ابن أبي زرع عن الأمير أبي بكر بن عمر: «. . . وجمع جيوشاً كثيرة وخرج إلى غزو بلاد السودان، فجاهدهم»[٤٩]. وفي موضع آخر يشير ابن أبي زرع إلى جهاد هذا الأمير لكفار السودان واستشهاده هناك، فيقول: «وانصرف إلى الصحراء، فأقام بها مدة يجاهد الكفرة من السودان إلى أن استشهد، رحمه الله، في بعض غزواته»[*]. وأشار ابن عذارى أيضا إلى وفاة أبي بكر بن عمر وهو يحارب السودان المجاورين «للمتونه» في الصحراء[**]. وذكر الزهري في حديثه عن غانا أن أهلها تحولوا إلى الإسلام وحسن إسلامهم عندما خرج إليهم أبوبكر بن عمر اللمتوني[٥٠]. وتحدث ابن خلدون عن مآثر أبي بكر بن عمر فذكر ضمن ذلك أنه فتح باباً من جهاد السودان، واستولى على نحو تسعين مرحلة من بلادهم[٥١].

وإن مما يدعمه أيضا أن إسقاط السلطة الوثنية في إمبرطورية غانا لم يكن مجرد إنجاز محدود أو حدث عابر بل كان من الأهمية البالغة بمكان لما نتج عنه من آثار هامة. والتفصيل في هذا الجانب يخرج عن نطاق البحث الذي بين أيدينا[٥٢]، إلا أنه بالإمكان القول بإيجاز أن المرابطين بإنجازهم هذا أعطوا الإسلام في المنطقة دفعة قوية تركت فيها أثاراً عميقة[٥٣]، الأمر الذى ترتب عليه حدثان هامان في تاريخ المنطقة: الأول ازدياد انتشار الإسلام في هذه المنطقة على أيدى السودانيين أنفسهم من السوننك[٥٤] والتكرور وغيرهم، والثاني ظهور عدد من الممالك الإسلامية التى كان لبعضها أثر واضح في تاريخ افريقيا الغربية[٥٥]. ولم يكن ذلك ليتحقق من مجرد أهداف عابرة ونوايا غير جادة.

الأهـداف الأخـرى

لقد حاولنا في الفقرات السابقة التأكيد على الجهاد على أنه هدف ديني اندفع أبوبكر بن عمر بجيشه من أجله لتقويض السلطة الوثنية في إمبراطورية غانا إلا أن ذلك لايعني إنكار وجود الهدف الاقتصادي لدى المرابطين وأثره في إنجاح مهمة هذا الجيش في بلاد غانا.

لقد استلزم الهدف الاقتصادي، بطبيعة الحال، السرعة في السيطرة على الطرق والمـراكزالتجارية المهمة في شمال الصحراء وعلى تخوم السودان، وهذا ما فعله المرابطون، فقد اتجهوا للسيطرة على مدينتي «سجلماسه و أودغست» في السنوات الأولى من قيام الحركة حيث استولوا على «أودغست» في نفس السنة التى أخضعوا فيها مدينة «سجلماسه» وهي سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م)[٥٦]. وكان ذلك كله على يد عبدالله بن ياسين الزعيم الأول للحركة. وبذلك هيأ المرابطون لأنفسهم التحكم في أهم طريق تجاري ربط بلاد المغرب بالسودان الغربي في ذلك الوقت، فمدينة «أودغست» كانت تمثل النهاية الجنوبية لهذا الطريق وبوابة «التبر» حيث يخرج منها في طريقه إلى الشمال، «وسجلماسه» كانت تمثل نهايته الشمالية والبوابة المستقبلة «للتبر» وتجارة السودان الأخرى[٥٧].

ولعل المرابطين قصدوا من ذلك الطموح الاقتصادي تأمين وسائل القوة المادية والمعنـوية للحـركة ليتسنى لها القيام بالجهاد، وهو الهدف الأهم، من مركز قوة كافية، إذ إن من الملاحظ أن ما قام به المرابطون من أعمال فيما يخص الناحية الاقتصادية لم يرتبط بمكاسب إقليمية أو قبلية بحته. ولا أدل على ذلك من تلك الخـدمـات الجليلة التى قدمها المرابطون لتجارة المنطقة بأسرها[٥٨]، فقد قاموا بخطوات عملية هامة في مصلحة تجارة المنطقة التى سيطروا عليها، معطين بذلك دعماً قوياً للتبادل التجاري بين بلاد المغرب والسودان الغربي. ومن هذه الخطوات إسقاط كل ما يخالف السنّة من مكوس وضرائب مالية. فقد ذكر ابن أبي زرع، في حديثه عن سيرة المرابطين في حكمهم من سنة ٤٦٢ هـ إلى ٥٤٠ هـ. (١٠٦٩ م

ـ ١١٤٥ م) في المناطق التى امتد سلطانهم إليها، بما فيها بلاد غانا، أنه لم يكن فيها رسم مكس ولا وظيف من الوظائف المخزنية ما عدا الزكاة والعشر حسب ما أقـره الشرع[٥٩]. ومنها أيضا اهتمامهم بأمن الطرق وسلامة القوافل وذلك بالأخذ على أيدى قطاع الطرق واللصوص، يقول ابن أبي زرع: «ولم يكن في أيامهم نفاق[٦٠] ولا قطاع ولا من يقوم عليهم»[٦١]. وقد أشار ابن خلدون إلى ناحية من ذلك عندما أثنى على يوسف بن تاشفين لما قام به من أعمال عظيمة، وخص بالذكر اهتمامه بأمن الرعايا من جور واستبداد بعض الفئات والقبائل[٦٢].

ومن هذه الخطوات أيضا عمل المرابطين على تحسين علاقات القبائل بعضها مع بعض وذلـك بحل ما بينها من خلافات ونزاعات. ويشير ابن عذارى، على سبيل المثال، إلى جهود عبدالله بن ياسين في ذلك فيذكر أن ابن ياسين عمل كل ما في وسعه لإخماد الفتن التى ثارت بين قبائل «المصامده» وقبائل بلاد «تامسنا» سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) حيث سار من «سجلماسه» وطاف بمواطن هذه القبائل واجتمع برجالاتها ووعظهم ولم يغادر حتى أخذ عليهم العهود والمواثيق بالسمع والطاعة للأمير أبي بكر بن عمر، وكان مما قاله لهم في أحدى خطبه: «ألا تعرفون أنه من مات منكم في هذه الحروب الجاهلية فإنه من أهل النار»[٦٣]. ولا ننسى أيضا عودة أبي بكـر بن عمر إلى الصحراء على عجل عندما جاءه الخبر بأن «جداله» أغارت على فئات من «لمتونه» هناك[٦٤].

وقـد كان لهـذه الخـطوات الأثـر الكبير في تشجيع الناس على الإقبال على التجارة، والتوسع فيها الأمر الذى ساعد في تنشيط الحركة التجارية، وانخفاض الأسعار وظهور فترة من الأمن الاقتصادي، والرخاء في المراكز التجارية التى كانت تشـرف على التجـارة عبـر الصحـراء[٦٥]. وأن مما يؤكد ذلك ازدياد رواج التبادل التجارى بين بلاد المغرب والسودان الغربي في مختلف أنواع السلع، فالإدريسي (ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م)، على سبيل المثال، وصف أهل مدينة «أغمات» فقال: «وهم أملياء (هكذا في النص)[٦٦] تجار مياسير يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجمـال الحـاملة لقنـاطير الأمـوال من النحاس الأحمر الملون والأكسية وثياب

الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار وضروب من الأفاوية والعطر وآلات الحديد المصنوع. وما منهم من رجل يسفر عبيده ورجاله إلا وله في قوافلهم المائة جمل والسبعون والثمانون جملاً، كلها موقره، ولم يكن في دولة الملثم أحد أكثر منهم أموالا......»(٦٧). وإن مما يؤكده أيضا ما صار يتدفق على مراكز المغرب التجارية من ذهب السودان، ومن هذه المراكز المهمة مدينة «سجلماسه» التى أصبحت مقر سك العملة المرابطية(٦٨).

ويصف ابن أبي زرع ما يمكن أن نسميه بالأوضاع الاقتصادية في عهد المرابطين فيقول هذا المؤرخ: «وكانت أيامهم (أي المرابطين) أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن، تناهى القمح في أيامهم إلى أن بيع أربعة أوسق بنصف مثقال، والثمار ثمانية أوسق بنصف مثقال، والقطانى(٦٩) لا تباع ولا تشترى» إلى أن قال: «وكثرت الخيرات في دولتهم وعمرت البلاد»(٧٠). فهذا النص، وإن كان فيه شيء من المبالغة(٧١)، كما أشار إلى ذلك الاستاذ الجنحاني(٧٢)، إلا أنه يعكس بشكل واضح ما كان للمرابطين من مآثر وإيجابيات على الناحية الاقتصادية في المنطقة.

مما سبق يتضح أن ما تهيأ للمرابطين من مصالح اقتصادية من جراء جهادهم وإصلاحاتهم في الصحراء وعلى تخوم السودان جعل أبا بكر بن عمر وجيشه ينطلقون إلى غانا من مركز قوة مما يؤكد أن الناحية المادية لم تكن هي المطلب من الهجوم على تلك الإمبراطورية.

وبالرغم من وضوح موقف المرابطين في هذه الناحية إلا أن هناك من الكتاب الغربيين من ينفي الدافع الديني من الحروب التى قام بها أبوبكر ابن عمر وجيشه في بلاد غانا(٧٣). ومنهم من لا ينكر الدافع الديني إلا أنه يؤكد على السلب والنهب كهدف من أهداف هجومهم على غانا(٧٤).

تفسير ابن خلدون للهجوم

لقد كان ابن خلدون ضمن الكتاب المسلمين الذين كتبوا عن المرابطين وعن

الممالك الإسلامية في السودان بما فيها مملكة غانا. وهو ينقل، عن مصادر مثل الإدريسي وابن سعيد وابن أبي زرع، كما هو واضح من إشاراته لمصادره. وهذه المصادر وإن سبقت ابن خلدون في الترتيب الزمني إلا أنها جميعها ليست بالطبع مصادر معاصرة لأحداث الفتح. وقد انفرد ابن خلدون من بين هذه المصادر وغيرها بإيراد نص قصير يصف فيه بعض أحداث هجوم المرابطين على غانا. يقول ابن خلدون في ذلك: «ثم أن أهل غانية ضعف ملكهم، وتلاشى أمرهم واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جانب الشمال مما يلي البربر كما ذكرناه وعبروا على السودان، واستباحوا حماهم وبلادهم، واقتضوا منهم الإتاوات والجزى وحملوا كثيرا منهم على الإسلام فدانوا به»(٧٥).

وبصرف النظر عن قصر النص وعن بعد ابن خلدون الزماني والمكاني عن الأحداث إلا أننا نرى أن للنص أهمية تجعله جديرا بالدراسة، وذلك لسببين:

الأول: علاقة النص المباشرة بجهاد المرابطين في غانا، وبالتالي هدفهم من الهجوم عليها، وهو موضوع البحث الذى بين أيدينا.

الثاني: كون عبارات النص تدين في ظاهرها المرابطين حيث تظهر الهجوم وكأنه مجرد عدوان على غانا وطمع مادي فيها.

لذلك فان المرء لا يملك إلا أن يتساءل هل قصد ابن خلدون هذا المعنى؟ وهل تحدث ابن خلدون عن المرابطين في مواضع أخرى بما يؤيد ذلك؟ وهل ما ذكره في هذه المواضع ينسجم مع ما ورد من إشارات عن المرابطين في المصادر الأخرى؟

وإن مناقشة النص السابق من خلال محاولة الإجابة على هذه التساؤلات ستعين في استجلاء المعنى المراد من عباراته وتدعم في نفس الوقت ما سبق وقيل عن الهدف الرئيس من هجوم المرابطين على غانا.

فقول ابن خلدون: «واستباحوا حماهم وبلادهم» يجب أن يفهم ضمن إطار ما كان المسلمون يتخذونه من خطوات قبل القيام بعملية الجهاد. والتفصيل في هذه

الناحية يخرج بالطبع عن نطاق هذا البحث، إلا أننا نرى أنه من المفيد أن نشير هنا الى الأمور الثلاثة التى كان يعرضها المسلمون على الجانب الأخر قبل الشروع في الحرب حيث كان ذلك سنّة في الإسلام، ففي الحديث الذى رواه مسلم في صحيحه ذكرت الوصايا التى كان الرسول صلى الله عليه وسلم يوصي بها من كان يؤمرهم على الجيوش، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن ما أجابوك اليها فاقبل منهم وكف عنهم . . .» وذكر النبي عليه الصلاة والسلام الإسلام ثم الجزية ثم الحرب(٧٦). وبما أن هدف المرابطين الأساس من حركتهم كان رد الناس إلى الإسلام الصحيح والعمل على نشر الإسلام، كما تبين سابقا، لذا فقد حرصوا على تطبيق السنّة في عملية الجهاد، وقد ساروا في ذلك على مذهب الإمام مالك، فالبكري، وهو ممن عاصر قيام الحركة، يقول عن المرابطين: «وهم على السنّة متمسكون بمذهب الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أنس رضي الله عنه. وكان الذى نهج ذلك فيهم ودعا الناس إلى الرباط ودعوة الحق عبدالله بن ياسين»(٧٧) ويذكر ابن عذارى، في حديثه عن جهاد المرابطين في السنوات الأولى من قيام الحركة، أنه رأى كتاباً قديماً كان قد بعث به الفقيه عبدالله بن ياسين إلى أهل الجبل الموالي لبلاد «لمتونه» يدعوهم للدخول في الإسلام وشريعة محمد صلى الله عليه وسلم. وقد كان أولئك القوم مشركين حسب ما ذكره ابن عذارى(٧٨). ويؤيد ذلك ما ذكره ابن أبي زرع في الأنيس المطرب، وهو أحد المصادر التى اعتمد عليها ابن خلدون، من أن ابن ياسين خطب في أتباعه عند أول خروج لهم وبين أن عليهم أن يبدؤوا بالإنذار والدعوة وإبلاغ الحجة قبل الشروع في الجهاد والدخول في الحرب(٧٩).

وطبق المرابطون مبدأ التبليغ قبل الحرب كذلك مع البرغواطيين الذين عُدّوا أهل كفر وضلال حسب ما أشارت إليه المصادر(٨٠).

ولم يكتف المرابطون بتطبيق مبدأ الدعوة قبل الحرب في بلاد المغرب فقط بل أخذوا به في الأندلس فمن ذلك أن يوسف بن تاشفين أرسل إلى «الفونسو» يدعوه

للدخـول في الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب وذلك قبل معركة الزلاقة، والتي حدثت سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م[٨١].

وعلى هذا الأساس فان المرابطين لا بد و أن يكونوا قد ساروا في جهادهم ضد إمبـراطـورية غانـا الـوثنية حسب السنّة إذ لا يوجد في المصادر ما يشير إلى أن المرابطين طبقوا أسلوبا آخر في جهادهم لهذه الإمبراطورية فهم يعلمون أنها تمثل أمة كافرة. وإذا كان أسلافهم قد حملوا لواء الجهاد في السودان من قبل، فمن البـدهي أن يسير فيه المـرابـطون على الـوجه المطلوب وهم الذين نادوا بحركة التصحيح بعد أن ابتعدت قبائلهم عن الإسلام وتفرقت كلمتهم. وإذا كان الأمر كذلك فأبوبكر بن عمر إذاً لم يدخل بجيشه بلاد غانا وحماها إلا بعد أن وجبت الحرب فاستحل السيطرة عليها للقضاء على السلطة الوثنية وإخضاع البلاد لحكم المسلمين، كما سبقت الإشارة اليه.

يذكـر ابن خلدون في إشـارتـه إلى الناحية المالية بعد فتح المرابطين لغانا، الإتـاوات والجزية وذلك في قوله: «واقتضوا منهم الإتاوات والجزي». وقد يعود تفسير ذلك إلى احتمالين: «الأول أنه أورد كلمة إتاوات (جمع إتاوه)[٨٢] كمرادف لكلمة جزي (جمع جزية)[٨٣]، الثاني أنه أراد التفصيل فقصد بالإتاوة ضريبة الأرض كالخراج وبالجزية ضريبة الرأس كما ورد في كتب الأحكام[٨٤]. وابن خلدون لم يكن بالطبع شاهد عيان، ولكن ليس من المتوقع، مع مكانة ابن خلدون العلمية وثقافته الدينية، أن لا يتوافق قصده من هذه المفردات مع ما ورد في كتب الفقه.

ومما يقوى وجهة النظر هذه أننا لو نظرنا إلى تاريخ حركة المرابطين من بدايته لوجدنا أن من أبرز الأمور التى أجمع عليها المؤرخون الذين اهتموا بالكتابة عن حركة المرابطين، ومن بينهم ابن خلدون نفسه، رفض المرابطين أي تدابير مالية لا تتوافق مع السنَّة من مكوس وضرائب إضافية وما إلى ذلك، بل وتشددهم في هذا الأمـر. وقـد رأينـا البكـرى في نص سابق يثني على المـرابطين لقطعهم جميع المغـارم[٨٥]. وكذلك ابن عذارى لم يغفل هذه الناحية في إشارته إلى معرف به المرابطون من حرص على تطبيق السنّة[٨٦]. ويشير ابن أبي زرع إلى اهتمام عبدالله

بن ياسين بمسألة الأموال فيذكر أنه بعد الانتصارات التى حققها المرابطون في بلاد السوس أخرج ابن ياسين عماله على نواحيها وكان من ضمن ما ألزمهم به وشدد عليهم فيه أخذ الزكاة و العشر وإسقاط ما سوى ذلك من المغارم المحدثه[٨٧]، والتزم المرابطون بهذه السياسة الجبائية في عهد يوسف بن تاشفين، فيذكر ابن أبي زرع أنه لم يكن في عهده طوال أيامه رسم مكس ولا مغارم ولم يكن يجبي سوى ما أوجبه حكم الكتاب والسنّة من الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة وأخماس غنائم المشركين[٨٨]. ويؤكد ابن خلدون ذلك بإشارته إلى أن ابن تاشفين أنكر على أمراء الطوائف بالأندلس وجود المكوس والمغارم، وأنه تعهد برفع هذه المظالم، وتحرى العدل[٨٩].

لذلك لا بد لنا في تفسير العبارة السابقة لابن خلدون من أن ننظر اليها ضمن موقف المرابطين تجاه الناحية المالية بوجه عام، إذ ليس من المتوقع أن يشذ المرابطون عن السنّة في هذا المجال لمجرد تغير المكان وقد ساروا عليها في كل جهادهم، خاصة وأن أبا بكر بن عمر، وهو الذى قاد الزحف على غانا، قد عرف بالتقوى والورع، كما سبقت الإشارة إليه، ولم يكن في ذلك بأقل من عبدالله بن ياسين .

أما العبارة الأخيرة في النص والتى يقول فيها ابن خلدون: «وحملوا كثيرا منهم على الإسلام فدانوا به» فمن الواضح أنه لا يقصد أن المرابطين كانوا يكرهون الناس بالقوة على اعتناق الإسلام إذ لو أمعنا النظر في عبارات أخرى لابن خلدون شبية بهذه العبارة لتأكد لنا ذلك، فهو عندما تحدث عن تاريخ الملثمين قبل حركة المرابطين أشار إلى جهادهم ضد أمم السودان الوثنية وقال ما نصه: «وجاهدوا من بها من أمم السودان وحملوهم على الإسلام فدان به كثيرهم (هكذا في النص) واتقاهم آخرون بالجزية فقبلوها منهم»[٩٠]. وفي عبارة أخرى يستخدم ابن خلدون نفس المعنى أي الدخول في الجهاد ضد الفئة المخالفة، حيث يقول عن ابتداء خروج المرابطين للجهاد: «ولما كمل معهم ألف من الرجالات قال لهم شيخهم عبدالله بن ياسين: إن ألفاً لن تغلب من قله، وقد تعين علينا القيام بالحق والدعاء

إليه وحمل الكافة عليه فاخرجوا بنا لذلك فخرجوا»[٩١]. فكلمة حمل في هذه الاستخدامات لاتعني إجبار الناس بالقوة أو إكراههم فرادى على الدخول في الإسلام بل تفيد مواجهة من يعترض طريق الإسلام أو بمعنى آخر جهاده ومناجزته حتى لا يكون سداً يحول دون انتشار الإسلام بين من وراءه من الناس.

واما بالنسبة لما كتبه ابن خلدون عن المرابطين في مواضع أخرى من تاريخه فانه يوجد فيه ما يبرهن بلا شك على أن ابن خلدون لا يقف موقفا سلبيا منهم، فقد تحدث عن فتح المرابطين لمدينة «سجلماسه» وأشار الى الإصلاحات التي قاموا بها في هذه المدينة بعد إخضاعها فقال: «وأصلحوا من أحوالها، وغيروا المنكرات، وأسقطوا المغارم والمكوس، واقتضوا الصدقات»[٩٢]. وفي موضع آخر ذكر ابن خلدون أعمال الأمير أبي بكر بن عمر وأشار إلى جهوده في سبيل إخماد نار الفتنة التى تأجج أوارها بين قبيلتي «لمتونه و مسوفه»، وهما من أكبر قبائل البربر. كما أشار ابن خلدون إلى فتح هذا الأمير باباً للجهاد في السودان لنشر الإسلام بين الوثنيين[٩٣]. وذكر أيضا مزية أخرى للمرابطين على جانب من الأهمية وهي اهتمامهم بأمن الرعايا وسلامتهم من ظلم واستبداد بعض الجماعات والقبائل حيث قال: «ثم صرف عزمه (أي يوسف بن تاشفين) إلى مطالبة «مغراوه» وبني «يفرن» وقبائل «زناته» بالمغرب وجذب الخيل من أيديهم وكشف ما نزل بالرعايا من جورهم وعسفهم فقد كانوا من ذلك على ألم»[٩٤].

خاتمة البحث

لقد اتضح من البحث ان أبا بكر بن عمر، وهو ممن قادوا حركة المرابطين في جهادها في المغرب وفي الصحراء، زحف بجيشه من المرابطين على غانا ليزيح السلطة الوثنية من الحكم وذلك بدافع الجهاد في سبيل الله وليس بدافع مادي.

أما تفسير ابن خلدون للهجوم فقد تبين أنه لم يقصد توجيه أي اتهام للمرابطين لا بالعدوان ولا بالطمع المادي. وابن خلدون على العموم لا يقف موقفا سلبياً تجاه المرابطين ولا تجاه جهادهم سواء في غانا أو في غيرها.

الحواشي والتعليقات

(١) - ابن أبي زرع، على بن عبدالله، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحرير وتعليق محمد الهاشمي الفيلالي، الرباط، المطبعة الوطنية، ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م، ج ٢، ص ٦؛- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م، ج ٦، ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٢) Trimingham, J. A History of Islam in West Africa. (Oxford, Oxford University Press, 1970), p. 21.

(٣) - ابن حوقل، ابو القاسم محمد بن حوقل، صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٧٩ م، ص ٩٧؛ البكرى،- أبو عبيد عبدالله بن عبد العزيز، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، باريس، المكتبة الشرقية الامريكية، ١٩٦٥ م، ص ١٥٩؛- ابن خلدون، ج ٦، ص ١٨٢، ويشير ابن خلدون في هذا الموضع إلى الاختلاف في اسمه بقوله: كان اسمه تيزاوا بن وانشق بن بيزا، وقيل يروتان بن واستولي بن نزار .

(٤) البكرى، ص ١٥٩؛ ابن أبي زرع، ج ٢، ص ٦ - ٧ .

(٥) ابن حوقل ينقل هنا عن رجل يدعى إبراهيم بن عبدالله والذى يبدو أنه من أهل مدينة أودغست وقد قابله ابن حوقل في مدينة سجلماسه. انظر ابن حوقل، ص ٦٥ - ٩٧ .

(٦) ابن حوقل، ص ٩٧ .

(٧) البكرى، ص ٦٤؛ ابن زرع، ج ٢، ص ٧ .

(٨) ابن عذارى، أحمد بن محمد، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الثانية، بيروت، دار الثقافة، ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م، ج ٤ ، ص ٧ - ٨؛ ابن أبي زرع، ج ٢، ص ٨ - ٩؛ ابن خلدون، ج ٦، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٩) أودغست Awdaghast وكانت تقع الى الشمال الغربي من غانا، ولتفصيل أكثر عنها انظر ابن حوقل، ص ٩١؛ وياقوت الحموى، معجم البلدان، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٩، ج ١، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(١٠) عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب افريقيا، ٤٣٠ - ٥١٥ هـ / ١٠٣٨ - ١١٢١م، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م. ص ٥٥ .

(١١) البكرى، ص ١٥٩ .

(١٢) البكرى، ص ١٦٤؛ ابن أبي زرع، ج ٢ ، ص ٧ .

(١٣) ابن حوقل، ص ٩٨ .

(١٤) Levtzion, N. Ancient Ghana and Mali,(London, Methuen and Co. Ltd. , 1973) p. 28.

(*) من المعروف أن صنهاجه كانت واحدة من أهم قبائل البربر وقد اعتاد الرجال من هذه القبيلة، خاصة في الجنوب من الصحراء، لبس اللثام، لهذا سميت صنهاجه اللثام، كما يقال الملثمون ويقصد بهم المرابطين، أنظر

البكري، ص ١٧٠ ؛ ابن خلدون، ج ٦، ص ١٨١ ؛ أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٨ م، ص ٢٦٩ .

(١٥) ابن أبي زرع، ج ٢، ص ٢١ ؛ الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٥٤ م، ج ٢، ص ٧ .

(١٦) ابن عذاري، ج ٤، ص ٧؛ ابن أبي زرع، ج ٢، ص ٩ .

(١٧) البكري، ص ١٦٤ - ١٦٥؛ ابن عذاري، ج ٤، ص ٨؛ ابن أبي زرع، ج ٢، ص ٨ - ٩ .

(١٨) Fage , J. A History of Africa, (London Hutchinson, 1979), P. 69; McCall, D. "Islamization of the Western and CentraL Sudan in the llth Century" , Boston Univer - sity Papers in Africa, Vol. 5 , 1971, p. 7.

(١٩) انظر عبد الحق حمروش، ابن تاشفين، الدار البيضاء، دار الكتاب، د. ت. ، ص ٤٢ . وعن تاريخ وفاة عبدالله بن ياسين انظر ابن عذاري، ج ٤، ص ١٦ ؛ ابن أبي زرع، ج ٢، ص ٣٠ .

(٢٠) انظر ابن أبي زرع، ج ٢، ص ٢٢ - ٢٣ ؛ ابن خلدون، ج ٦، ص ١٨٤ .

(٢١) انظر على سبيل المثال: McCall ,p. 12; Moraes Farias, P., "The Almoravids: Some Questions Concerning the Character of the Movement During its Periods of Closest contact with the Westren Sudan" , Bulletin de L'institut Fondamental d'Afrigue Noire, Vol. 29, 1967, p. 848; Levtzion, N. "The Earl States of the Western Sudan to 1500" , History of West Africa, edited by J. Ajayi and M. Crowder, 2nd edition, (London, Longman, 1976), Vol. 1, p. 123 .

(٢٢) ويلاحظ هنا، وكما أشار الدكتور دندش، ص ١٠٤، أن بعض المؤرخين المسلمين، أمثال ابن عذاري وابن أبي زرع والناصري، مالوا إلى إضفاء سمة الأسطورة على ملابسات عودة أبي بكر بن عمر من الصحراء إلى المغرب ومقابلته لابن عمه يوسف بن تاشفين ثم التنازل له عن السلطة في المغرب. ويرى الأستاذ حمروش، ص ٤٢، أن ما ذكره المؤرخون في هذا الصدد ليس له إلا قيمة محدّوده .

(٢٣) ابن عذاري، ج ٤، ص ٢٥ .

(٢٤) دندش، ص ١٠٥ .

(٢٥) ابن عذاري، ج ٤، ص ٢٦ .

(٢٦) ابن عذاري، ج ٤، ص ٢٢ .

(٢٧) انظر دندش، ص ١٥٥ ؛ Moraes Farias, p. 849

وذكر ابن أبي زرع، ج ٢، ص ٤٦، أن يوسف بن تاشفين بدل السكة سنة ٤٧٣ هـ وكتب عليها اسمه، وقد يكون الاختلاف بسبب التباس في التواريخ عند ابن أبي زرع، أو أن التغيير أحدث في الدرهم فقط .

(٢٨) انظر محمد عبد الهادى شعيره، المرابطون: تاريخهم السياسي، القاهرة، مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٦٩ م ص ٧٨ .

(٢٩) انظر دندش، ص ١١٢، حيث أشار إلى هذه الناحية واقترح تعليلاً لذلك في قوله: «ويبدو أن أحداث المغرب ومن بعدها جهاد المرابطين في الأندلس قد طغت على أحداث الجنوب» .

(٣٠) يشير أحد المستشرقين إلى نفس المعنى بقوله: «إن الأجواء في غانا كانت قد تهيأت للتحول إلى الإسلام وذلك من خلال التأثير السلمي على مدى فترة طويلة للمسلمين المقيمين في غانا ومع ذلك ما زالت الحاجة قائمة لتدمير تلك القوة العسكرية والسياسية الوثنية في غانا والتى ظلت تقف بصلابة رافضة الإسلام. وهذا ما فعله المرابطون انظر. Levtzion, Ancient Ghana and Mali, p. 186

(٣١) إبراهيم على طرخان، إمبراطورية غانا الإسلامية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠، ص ٤١ - ٤٤ .

(٣٢) البكرى، ص ١٣٤ - ١٤١ .

(٣٣) ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم الرعينى، المؤنس في أخبار افريقيا وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس، المكتبة العتيقة، ١٣٨٧ هـ. ص ٩٨ - ٩٩ .

(٣٤) ابن أبي زرع، ج ٢، ص ١٧ - ١٩ .

(٣٥) ابن عذارى ج ٤، ص ١٠ .

(٣٦) ابن أبي زرع، ج ٢، ص ٢٩ .

(٣٧) ابن أبي زرع، ج ٢، ص ٢٠ - ٣٥ .

(٣٨) البكرى، ص ١٦٤، وأنظر ابن عذارى، ج ٤، ص ١٠ - ١١ .

(٣٩) ابن أبي زرع، ج ٢، ص ٩٢.

(٤٠) هكذا في النص، والمعنى دور، جمع دار. أنظر ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت، دار صادر، د. ت، ج ٤، ص ٢٩٨ .

(٤١) ابن أبي زرع، ج ٢، ص ٢٠ .

(٤٢) ابن أبي زرع، ج ٢، ص ٣٣ .

(٤٣) عن البرغوطيين وسبب نعتهم بهذا الاسم انظر البكرى، ص ١٣٤ - ١٤٠؛ ابن أبي زرع، ج ٢، ص ٢٤ - ٢٦؛ العبادى، ص ٢٧٨ - ٢٨٧ .

(٤٤) انظر العبادى، ص ٩٢ - ٩٣ .

(٤٥) ابن أبي زرع، ج ٢، ص ١٤ - ١٥؛ ابن أبي دينار، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(*) ابن عذارى، ج ٤، ء ١٤ - ١٥ .

(٤٦) ابن عذارى، ج ٤، ص ٢٤ - ٢٥؛ ابن أبي زرع، ج ٢، ص ٣٢ - ٣٥؛ ابن خلدون، ج ٦، ص ١٨٤ . يعترف أحد الكتاب الغربيين بأثر شخصية أبي بكر بن عمر في وجود روح الجهاد الحقيقي لدى المرابطين في هجومهم على غانا، وما قاموا به بعد ذلك من أعمال في السودان إلا أن الكاتب يرى أن هذه الروح فقدت بعد وفاة أبي بكر بن عمر. انظر: Moraes Farias, p. 800 .

(٤٧) دندش، ص ١١٥ .

(٤٨) انظر. Moraes Farias, p. 850

(٤٩) ابن أبي زرع، ج ٢، ص ٣٣ .

(*) ابن أبي زرع، ج ٢، ص ٣٥ .

(**) ابن عذارى، ج ٤، ص ٢٦ .

(٥٠) الزهرى، محمد بن أبي بكر، كتاب الجغرافيه، عن :

Corpus of Early Arabic Sources for West African History, Edited by J. Hopkins and N. Levtzion, Cambridge, Cambridge University Press, 1981, p. 98.

(٥١) ابن خلدون، ج ٦، ص ١٨٤ .

(٥٢) لقد بحث موضوع الآثار القريبة والبعيدة المدى لفتح المرابطين لغانا ودعوتهم في السودان الغربي في أعمال علمية تركز على فترة ما بعد الفتح منها:

١ ـ عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب افريقيا ٤٣٠ ـ ٥١٥ هـ (١٠٣٨ - ١١٢١ م) .

٢ ـ Paulo F. De Moraes Farias, "The Almoravid: Some Questions concerning the Character of the Movement During its Periods of Closest Contact with the Westren Sudan".

والمشار إليهما أعلاه .

(٥٣) انظر حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في افريقيا، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨٦ م، ص ٢١٥؛ Levtzion, Ancient Ghana and Mali, p. 186 .

(٥٤) السوننك Soninke وهم فرع من الفروع الأساسية من الماندى (الماندنجو) Mandingo ويسمون أيضا السراكولي Sarakulle ولمزيد من العلومات عنهم انظر:

Ajayi, J. F. and Crowder, M., eds., History of West Africa, Vol. 1, London, Longman, 1976, pp. 15 - 18; Levtzion, Ancient Ghana and Mali, pp. 16 - 17.

(٥٥) نعيم قداح، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في افريقيا الغربية، دمشق، مكتبة أطلس، ١٩٦٥ م، ص ٦٨

(٥٦) البكرى، ص ١٦٧ ـ ١٦٨ .

(٥٧) انظر الحبيب الجنحاني، المغرب الاسلامي : الحياة الاقتصادية والاجتماعية ٣ ـ ٤ هـ / ٩ ـ ١٠ م، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٨، ص ١٧٨، ص ١٩٣ ـ ١٩٤ .

(٥٨) انظر محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، الكويت، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، ١٩٨٢، ص ٤٣، والذي يشير إلى شيء من ذلك في قوله عن حكم المرابطين : «أنه قدم للمنطقة أعمالاً جليلة ومنجزات في الميدان الاقتصادى لا سبيل إلى نكرانها» .

(٥٩) ابن أبي زرع، ج ٢، ص ٩٤ .

(٦٠) لقد تمت مراجعة عدد من معاجم اللغة : المخصص لابن سيده، والصحاح للجوهرى، ولسان العرب لابن منظور، وتاج العروس للزبيدى، والقاموس المحيط للفيروز أبادى، وذلك لضبط وتحديد معنى كلمة نفاق، الا ان الكلمة لم توجد في هذه المعاجم بما يناسب السياق الوارد في النص . والذى يبدو لي أن ابن أبي زرع يعنى بالكلمة النهابين أو السراق أو المحتالين .

(٦١) ابن أبي زرع، ج ٢، ص ٩٤ .

(٦٢) ابن خلدون، ج ٦، ص ١٨٤ .

(٦٣) ابن عذاري، ج ٤، ص ١٥ .

(٦٤) ابن عذاري، ج ٤، ص ٢٠، وقد جعل ذلك من أحداث سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) ، أما ابن أبي زرع، ج ٢، ص ٣٢، وابن خلدون، ج ٦، ص ١٨٤، فقد جعلا ذلك في سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠ م) .

(٦٥) انظر الحبيب الجنحاني، «السياسة المالية للدولة المرابطية» ، المؤرخ العربي، العدد ١٣، ١٩٨٠، ص ١٦ .

(٦٦) لم أعثر في معاجم اللغة على كلمة بهذا اللفظ، ويحتمل أن تكون مشتقة من الامتلاء، وأوردها الإدريسي، على ما يبدو، كمرادف لكلمة مياسير .

(٦٧) محمد بن محمد الشريف الإدريسي، المغرب وأرض السودان و مصر و الاندلس، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ليدن، مطبعة بريل، ١٩٦٨ م ص ٦٦ .

(٦٨) أنظر الجنحاني، «السياسة المالية للدولة المرابطية» ، ص ١٩ .

(٦٩) «القطانى» يقال هو اسم جامع للحبوب التى تطبخ مثل العدس، واللوبيا، والحمص وما شاكلها. ويقال القطانى خضر الصيف. ابن منظور، ج ١٣، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥ .

(٧٠) ابن أبي زرع، ج ٢، ص ٩٤ .

(٧١) وتظهر المبالغة في الزعم باستمرار الرخاء والرفاهية وربط ذلك برخص الأسعار، إذ لا يعقل أن يدوم الرخص ويشمل كل المناطق ولا يتأثر بقلة الأمطار مثلا، أو بكثرة الحروب في عهد يوسف بن تاشفين وحفيده تاشفين بن علي، كما أشار إلى ذلك ابن أبي زرع نفسه وغيره من المؤرخين. وعلى العموم فإن ظهور الرخاء والرفاهية ورخص الأسعار في فترات لا يخول تعميمه طيلة فترة حكمهم .

(٧٢) الجنحاني، «السياسة المالية للدولة المرابطية» ، ص ١٦ .

(٧٣) Moreas Farias, p. 800.

(٧٤) انظر على سبيل المثال:

Davidson, B. The Lost Cities of Africa, Boston, Little Brown and Comany, 1987, p. 88; Fage, J. A History of West Africa, Cambridge, Cambridge University Press, 1972, p. 19.

(٧٥) ابن خلدون، ج ٦، ص ٢٠٠ .

(٧٦) القشيرى، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٧٥ هـ، ص ١٣٥٧، حديث رقم ١٧٣١ .

(٧٧) البكرء، ص ١٦٤ .

(٧٨) ابن عذاري، ج ٤، ص ١٢ .

(٧٩) ابن أبي زرع، ج ٢، ص ١٤ .

(٨٠) انظر ابن أبي زرع، ج ٢، ص ٢٤؛ ابن أبي دينار، ص ١٠٦ .

(٨١) ابن عذاري، ج ٤، ص ١١٥ .

(٨٢) لم يرد في كل من اللسان و القاموس المحيط إتاوات كجمع لكلمة إتاوة، وإنما ورد أتاوى وأتى، انظر ابن

منظور، ج ١٤، ص ١٨؛ الفيروز ابادى مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، القاهرة، المطبعة المصرية، ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٥ م، ج ٤، ص ٢٩٧ .

(٨٣) ابن منظور، ج ١٤، ص ١٤٧ .

(٨٤) انظر ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، أحكام أهل الذمة، تحقيق صبحي الصالح، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٣ م، ج ١، ص ١٠٠ .

(٨٥) البكرى، ص ١٦٤ .

(٨٦) ابن عذارى، ج ٤، ص ١١ .

(٨٧) ابن أبي زرع، ج ٢، ص ٢٢ .

(٨٨) انظر الجنحاني، «السياسة المالية للدولة المرابطية»، ص ١٥ .

(٨٩) ابن خلدون، ج ٦، ص ١٨٧، وانظر أيضا ص ١٨٣ من الجزء نفسه .

(٩٠) ابن خلدون، ج ٦، ص ١٨١ .

(٩١) ابن خلدون، ج ٦، ص ١٨٣ . ويلاحظ أن إيرادنا لهذين الاستشهادين عن ابن خلدون هو لتأكيد مقصوده من كلمة حمل في النص، وإلا فهذا الاستخدام ليس غريباً فالبكرى (ص ١٧٢)، على سبيل المثال، وصف جهود ملك التكرور وحرصه على تطبيق شرائع الإسلام على شعبه، فقال: «وأقام شرائع الإسلام، وحملهم عليها، وحقق بصائرهم فيها» وكل ذلك يتفق مع المعنى اللغوي لكلمة حمل فقد ورد في معاجم اللغة قولهم: وحمله على الأمر يحمله فانحمل أي أغراه به، وحمل على نفسه في السير أى جهدها فيه. أنظر الفيروز ابادى، ج ٣، ص ٣٦١، ابن منظور، ج ١١، ص ١٨١ .

(٩٢) ابن خلدون، ج ٦، ص ١٨٣ .

(٩٣) ابن خلدون، ج ٦، ص ١٨٤ .

(٩٤) ابن خلدون، ج ٦، ص ١٨٤ .